بقلم : حسني سيد لبيب
مصر

أزف الرحيل

رنا إلى الرجل فارع الطول، حين دخل مكتبه دون توقع. لم يستأذن السكرتير. أنهى إليه الأوراق المطلوبة. تنهد وهو يسند ظهره إلى الوراء. لم يكن في الأمر مفاجأة. سن الإحالة إلى المعاش معروف جيداً، منذ خطا خطواته الأولى بالمصلحة موظفاً مستجداً. زحمة العمل لم تترك له وقتاً للتفكير فيه. مرت به السنون وبدأ يخطو خطا حثيثة إلى عتبة الستين، سن الشيخوخة والمرض والتفكير في نهاية الرحلة. اتصل به الموظف المختص وحسب له المعاش الشهري. فوجئ بضآلة المبلغ. غرق في متاهة الأرقام والحسابات.. أشياء سيطرت على تفكيره وأزعجته. رأى أن ما سوف يتقاضاه لن يتجاوز ٣٠٪ مما يتقاضاه من راتب ومكافآت وحوافز.. في ذمته ابنه الباحث عن وظيفة.. وابنته التي حصلت على مؤهل جامعي، وبدأت أمها تعلمها فنون الطبخ انتظاراً لابن الحلال.. الثالثة تدخل سنتها الجامعية الأولى.. وزوجة لا تذهب إلى العمل إلا لماماً.. ما أكثر إجازاتها المرضية والعارضة والاعتيادية، وتتمنى أن تسوي معاشها.. وأمه المريضة.. وأخواته المتزوجات يتمنين أن يسأل عنهن، ولو بالهاتف.. تركة تثقل كاهله..

بدأ الموظف يعرض خدماته في السعي من مكتب لآخر لإنجاز الأوراق، وإنهاء إخلاء الطرف. تأمل قرار الإحالة إلى المعاش، الذي نمق بعبارات مهذبة: «نهنئ سيادتكم بعيد ميلادكم الستين، ونشكر لكم ما أديتموه من خدمات...».

يتمتع بسمعة حسنة. الكل يحبه ويعتز به إنساناً قبل أن يكون رئيساً للجميع. عبارات يسمعها من حين لآخر من الموظفين:

- كيف يسير العمل بعد أن تتركنا؟

- نحن لا نكاد نصدق أنك سوف تحال إلى المعاش..

- قد تركت بصمات لا تمحى..

أهي عبارات مجاملة أم هي تحاكي الصدق في نفوس قائليها؟ أياً كان الأمر، فالحقيقة الماثلة أن القانون أعطاه فرصة ليستريح من أعباء الوظيفة، ويخلد إلى الراحة.. هي بداية النهاية كما يقال.. لكن أحد الموظفين المشهود له بالظرف والفكاهة قال له في مودة:

- الحياة تبدأ بعد الستين..

عاد إلى بيته يجر ثقل السنين الطويلة، كأنه عائد من ساحة الوغى قائداً مهزوماً، كأنه هرم عشر سنوات في عشر ساعات.. منذ حضر في الثامنة صباحاً، حتى وصوله البيت في السادسة مساء. حين تمدد مستلقياً على ظهره، هرعت إليه زوجته تجلس

على طرف السرير، تضمد جراحاً دفينة غائرة. قالت:

- إنها حياة جديدة.. تتعبد فيها وتتقرب أكثر إلى الله..

- ما أفكر فيه.. كيف ندبر معيشتنا بهذا المعاش الضئيل؟

- لا تحمل هماً.. كل عقدة لها حلال..

- تناول قدح الشاي الساخن. بدأ يعدّ الأيام المتبقية له.. كيف يؤدي عمله؟ عليه أن يتماسك ويدير عمله بحنكته المعروفة، كأنه باق في مكانه سنوات عديدة! إنها مهمة ثقيلة. أحس بتصرفاته تتسم باللين والتودد. لم يعد رئيس المصلحة الحازم. إلا أن مرؤوسيه لا يعصون له أمراً. الإحساس الطاغي بأنه لم يتبق له في العمل إلا قرابة الشهر جعله يبدو هكذا، بل يشكو من وهن العظام رعشة اليدين وضعف الذاكرة.

أصيب بصدمة قبل ذلك بشهرين، حين داعب طفلة صغيرة في إحدى الحدائق العامة. مدّ يده ليسلم عليها. استغربت الصغيرة، خافت من هذا الغريب المقتحم لطفولتها. تطلعت إليه بعينين متسائلتين متوجستين.. حسمت أمها الموقف مشجعة إياها:

- سلمي على «جدّو»..

كان من المعتاد أن يناديه الصغار بلقب «عمو».. ثم تغير النداء إلى «عم الحاج».. والآن يتغير من جديد إلى «جدو».. يلون الزمان القسمات، يكرمش الجلد، يبطئ من خطانا، يخذل تطلعاتنا، يغير الأسماء التي نتنادى بها!

نام ليلته بأعصاب هادئة، ليس ثمة أحلام مزعجة أو كوابيس. نام أجمل ما يكون النوم، وفي الصباح الباكر، توجه لإلقاء نظرة على المقبرة الجديدة، التي أهملها سنوات عديدة. لابد من إطلالة. لا تغني الدنيا عن الآخرة. التقى مع «التربي» الذي فتح مزلاج الباب الحديدي، فدخل مارا بالحوش المغطاة أرضيته ببلاط اسمنتي رمادي اللون. وقف قبالة «الشاهد» عمودان تآكل منهما الجير، كأنهما يتجهان إلى السماء في خشوع متضرعين. قرأ الفاتحة على أرواح أموات الجبانة كلها. اطمأن إلى «المجاديل». حين ترفع، ينزلون الجثمان إلى القبر المظلم. هنا يتساوى الإنسان بالتراب. عجباً لهذه الدنيا! لا تساوي جناح بعوضة. نفح الرجل مبلغاً محترماً، أفهمه أنه تعويض لعدم مجيئه. سأل عن الصبّار. أفهمه أن المدفن جديد فلا داعي لزرعه الآن.. حدّث نفسه: «هنا مرقدي.. هنا مدفني..».

أقبل نحوهما مقرئ بجلبابه الأبيض.. حياهما.. تربع بجوار «الشاهد» الحجري - دون إذن من أحد- وبدأ يقرأ سورة «الرحمن».. قاطعه «التربي» منتهراً إياه:

- قم وانصرف يا شيخ.. المدفن لا موتى فيه..

نظر إليه نظرات عتاب، كأنه يريد أن يقول له: «لا تقطع رزقي». قال:

- القرآن يجوز في كل الأحوال..

ضرب «التربي» كفاً بكف. قال متعجباً:

- لا حياة لمن تنادي..

ابتسم صاحب المدفن وقال له:

- دعه يقرأ..

أصغى للتلاوة السريعة، بينما «التربي» لا يكف عن الحديث عن متاعب المهنة، ويشكو له من الناس الذين لا يقدرون تعبه، إلا أنه كان منصرفاً عنه، وطفق ينصت للتلاوة الموحية بأن القيامة أزف موعدها.. ولما انتهت التلاوة نهض وأخذ ينفض التراب عن جلبابه، متناولاً منه ما جادت به نفسه، وطفق يقبل ما أخذ..

عاد إلى بيته وقد اغبرت ثيابه وحذاؤه..

وفي المصلحة التي يعمل بها، لم يتبق على خروجه منها سوى أيام قلائل.. ودّع الغرف والمكاتب والأوراق. هذه نهاية المطاف.

أقيم حفل التكريم، استمع فيه إلى كلمات عظيمة بليغة ثناء عليه وحباً له. امتلأت المناضد بقطع الحلوى الشرقية والغربية، وتناثرت زجاجات المياه الغازية والمعدنية، والفواكه. باقات الورد انتشرت من حوله، وفي الأركان لمسات وفاء ومشاعر كريمة طوق بها العاملون رحلة كفاحه.. جاء دوره ليشكر الحشد الملتف. اختنقت الكلمات في حلقه، واحتبست الدموع في عينيه. وإزاء هذا الموقف الصعب، صفق الحاضرون تحية وإكراماً له. تدخل منظم الحفل وألقى كلمة عبر فيها عن رحلة العمل الشريف التي قادها بضمير يقظ، فاكتسب احترام الجميع.

حمل الساعي الهدايا الكثيرة إلى سيارته. قادها على مهل كأنه في نزهة، أو أنه لا يريد للطريق أن ينتهي.. فعند عودته إلى البيت ينتهي آخر يوم عمل، وتبدأ الحياة بعد الستين، التي قال عنها متفائل إنها بداية حياة جديدة.. وفي البيت، انتظره تكريم آخر من الأسرة والأخوات..

وماذا بعد؟

تنهد في حيرة. إنه يرى نهاية الرحلة. أزف الرحيل عن الدنيا.. ما أكثر خداعها؟ تغرينا بالأمنيات العذبة.. ولكن.. آه من لكن.. حين تخرج من الدنيا صفر اليدين! ■